



لا يمر يوم إلا وتطالعنا وسائل الإعلام ومراكز البحوث الاجتماعية والاقتصادية بدراسات وإحصائيات متشائمة عن مستقبل سوريا، فبعضها مثلًا يقول إن سوريا بحاجة لثلاثة عقود كي تعود إلى ما كانت عليه قبل اندلاع الثورة. وبعضها يتحدث عن مبالغ خيالية لإعادة الإعمار. وأخر يحاول أن يصطاد في الماء العكر بالحديث عن تمزق النسيج الاجتماعي السوري إلى غير رجعة.

لا شك أن الدمار الذي حل بسوريا على أيدي نظامها والمتصارعين على سوريا مرعب بكل المقاييس اقتصادياً واجتماعياً وانسانياً، وربما تكون سوريا فعلاً مأساة القرن. لكن علينا ألا ننسى أن بلاداً كثيرة مرت بأزمات مشابهة من احتراش داخلي وخراب ودمار وأنهيار ثم ضممت جراحها بسرعة، وعادت أفضل مما كانت عليه رغم تناحرها الداخلي ومحنها وما سيها الاقتصادية والبشرية الرهيبة.

لقد شهدت الجزائر على مدى عقد كامل من الزمان منذ بداية تسعينيات القرن الماضي حتى نهايته صراعاً أتى على الأخضر واليابس.

ونتذكرة عندما كنا في هيئة الإذاعة البريطانية أن الخبر الجزائري الكارثي كان الخبر الأول في وسائل الإعلام لسنوات وسنوات.

لقد كانت أخبار القتل والدمار والدماء هي السائدة عن الجزائر.

من يتذكر تلك الفترة، بالرغم من أنه لم يمر عليها سوى ثلاثة عشر عاماً فقط؟

لقد أصبحت نسيأً منسيأً، رغم كل مأساتها وفظاعتها. المهم في الأمر أن الجزائر لم تنته كدولة موحدة كما بشر البعض وهوّل، وتمكن حلال فترة وجيزة من ترميم بنيانها الشعبي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي بسرعة فائقة.

قد يجادل البعض هنا بأن الجنرالات الذين تسببوا في مأساة الجزائر ظلوا مكابنهم يتحكمون بالبلاد وشعبها، ولم تشهد البلاد

إلا قليلاً من الإصلاحات. وهذا صحيح. لكن العبرة في أن الشعب الجزائري استطاع أن يتجاوز محنته الرهيبة، بغض النظر عنمن تسبب بها، وأن يعود إلى الحياة من جديد على أمل أن يكمل تحقيق أهدافه عاجلاً أو آجلاً رغمأ عن أنوف جنرالات القمح والأرز والغاز والنفط والسكر.

أي أن قانون الحياة أقوى من قانون الموت لدى الشعب.
هل تذكرون ما حدث في رواندا عام 1994؟

لقد شهدت مذابح وحرباً أهلية لم يسبق لها مثيل، فقد قتلت قبيلة التوتسي والهوتو من بعضهما البعض أكثر من مليون شخص.

لكن رواندا الآن نسيت مؤسساتها وصراعاتها القبلية الوحشية، وهذا هي وقد عادت إلى الحياة، كما لو أن شيئاً لم يكن. وكيف لا نذهب بعيداً عن سوريا، فقد شهد جارها لبنان حرباً أهلية حرقـتـ البـلـادـ لـمـدـةـ سـتـةـ عـشـرـ عـامـاًـ،ـ وـتـطـاحـنـ الـمـسـيـحـيـوـنـ وـالـدـرـوزـ وـالـسـنـنـ وـالـشـيـعـةـ،ـ وـلـمـ يـقـ بـيـتـ إـلـاـ وـفـقـ عـرـيزـاًـ.
لا بل كان أفراد هذه الطائفة أو تلك يتفاخرون بالتمثيل بجثث ضحايا الطائفة الأخرى.

لكن بعد كل ما حصل، هـاـ هـوـ لـبـانـ وـقـدـ ضـمـدـ جـرـوـحـهـ الطـائـفـيـ الغـائـرـةـ،ـ وـنـسـيـ كـلـ مـاـ حـدـثـ،ـ لـيـعـودـ إـلـىـ الـحـيـاـةـ مـنـ جـدـيدـ.
الـمـهـمـ أـنـهـ بـعـدـ كـلـ ذـلـكـ الـخـرـابـ وـالـدـمـارـ وـالـدـمـاءـ وـالـاـنـهـيـارـ وـالـتـطـاحـنـ الطـائـفـيـ استـعـادـ عـاـفـيـتـهـ الـاجـتـمـاعـيـ وـالـشـعـبـيـ،ـ وـعـادـتـ لـحـمـتـ الـوـطـنـيـ رـغـمـ التـشـطـيـ الطـائـفـيـ،ـ وـرـغـمـ كـلـ التـهـوـيـلـ وـالـتـبـشـيرـ بـتـفـكـ لـبـانـ وـزـوـالـهـ.

قد يتتسـأـلـ الـبـعـضـ كـيـفـ تـرـيـدـ أـنـ يـكـونـ الـحـلـ السـوـرـيـ عـلـىـ الـطـرـيـقـةـ الـجـزـائـرـيـةـ،ـ حـيـثـ عـادـ الشـعـبـ إـلـىـ حـضـنـ جـنـرـالـاتـ بـعـدـ كـلـ التـضـحـيـاتـ الـتـيـ قـدـمـاـتـ الـجـزـائـرـيـوـنـ لـلـتـخـلـصـ مـنـ نـيـرـ الـاـسـتـبـدـادـ وـالـطـغـيـانـ وـدـوـلـةـ الـمـخـابـرـاتـ الـحـقـيرـةـ؟ـ
معـاذـ اللـهـ أـنـ يـعـودـ الشـعـبـ السـوـرـيـ إـلـىـ حـظـيـرـةـ الـطـغـيـانـ.ـ لـمـ نـحـاـوـلـ مـنـ خـلـالـ الـكـلـامـ أـعـلـاهـ القـوـلـ إـنـ سـوـرـيـاـ سـتـشـهـدـ مـاـ شـهـدـهـ

الـجـزـائـرـ مـنـ بـقـاءـ لـلـطـغـمـةـ الـحـاـكـمـةـ جـائـمـةـ عـلـىـ صـدـورـ السـوـرـيـيـنـ بـنـفـسـ الـوـسـائـلـ وـالـأـسـالـيـبـ.

فـالـزـمـنـ قـدـ تـغـيـرـ تـامـاـ،ـ نـاهـيـكـ عـنـ أـنـ مـوـقـعـ سـوـرـيـاـ وـتـرـكـيـبـتـهاـ الـمـوزـاـيـكـيـةـ مـخـتـلـفـةـ تـامـاـ عـنـ طـبـيـعـةـ الـجـزـائـرـ.
لـمـ يـعـدـ النـظـامـ الـذـيـ ثـارـ عـلـيـهـ السـوـرـيـوـنـ بـأـسـالـيـبـهـ وـرـمـوزـهـ مـقـبـلـاـ لـاـ دـاـخـلـيـاـ وـلـاـ خـارـجـيـاـ.ـ وـلـوـ تـوـافـقـ السـوـرـيـوـنـ عـلـىـ نـظـامـ جـدـيدـ
مـقـبـولـ مـنـ كـلـ الـأـطـرـافـ،ـ وـهـوـ لـيـسـ صـعـبـاـ،ـ فـسـتـبـدـ سـوـرـيـاـ بـالـتـعـافـيـ السـيـاسـيـ وـالـاـقـتـصـادـيـ وـالـاجـتـمـاعـيـ مـثـلـ الـجـزـائـرـ وـلـبـانـ،ـ
وـرـبـماـ بـشـكـلـ أـسـرـعـ.

لـاـ أـتـقـ أـبـدـاـ مـعـ الـتـقـدـيرـاتـ الـتـيـ تـقـوـلـ إـنـ سـوـرـيـاـ عـادـتـ ثـلـاثـيـنـ عـامـاـ إـلـىـ الـوـرـاءـ،ـ أـوـ إـنـهـ بـحـاجـةـ لـعـقـودـ كـيـ تـعـودـ إـلـىـ مـاـ كـانـتـ عـلـيـهـ
مـنـ سـوـءـ قـبـلـ الـثـورـةـ،ـ أـوـ أـنـ نـسـيـجـهـ الـاجـتـمـاعـيـ قـدـ اـنـدـثـرـ.

كـلـ هـذـاـ كـلـامـ مـجـرـدـ تـهـوـيـلـاتـ لـأـسـاسـ لـهـ مـنـ الصـحـةـ.ـ لـوـ اـسـتـقـرـتـ الـأـوـضـاعـ،ـ وـتـوـافـقـ السـوـرـيـوـنـ جـمـيـعـاـ عـلـىـ قـيـادـةـ تـمـثـلـ
الـجـمـيـعـ،ـ وـلـيـسـ كـالـقـيـادـةـ الـحـالـيـةـ الـتـيـ اـعـتـرـفـ رـئـيـسـهـاـ قـبـلـ مـدـةـ بـأـنـهـ يـمـثـلـ فـقـطـ مـؤـيـدـيـهـ،ـ وـأـنـهـ يـعـتـبـرـ بـقـيـةـ السـوـرـيـوـنـ عـمـلـاءـ وـخـوـنـةـ،ـ
لـوـ تـوـفـرـتـ الـقـيـادـةـ الـتـيـ يـجـمـعـ عـلـيـهـ السـوـرـيـوـنـ،ـ لـدـاوـيـ السـوـرـيـوـنـ جـرـاحـاتـهـمـ عـلـىـ الـفـورـ،ـ وـلـاـسـتـعـادـوـاـ الـلـحـمـ الـوـطـنـيـ،ـ وـتـعـالـوـاـ
فـوـقـ الـأـحـقـادـ،ـ وـتـنـاسـوـاـ ضـغـائـنـهـمـ،ـ وـلـنـهـضـتـ سـوـرـيـاـ مـنـ كـبـوـتـهـاـ فـيـ وـقـتـ قـيـاسـيـ،ـ لـاـ سـيـماـ وـأـنـ الشـعـبـ السـوـرـيـ شـعـبـ مـهـنـيـ
قـادـرـ أـنـ يـعـيـدـ بـنـاءـ الـبـلـدـ خـلـالـ فـتـرـةـ وـجـيـزةـ،ـ وـيـجـعـلـهـ تـنـبـضـ بـالـحـيـاـةـ ثـانـيـةـ بـأـسـرـعـ وـقـتـ مـمـكـنـ.

أـمـاـ إـذـاـ حـدـثـ مـاـ حـدـثـ فـيـ عـرـاقـ حـيـثـ سـيـطـرـتـ عـصـابـةـ إـلـيـرانـ الطـائـفـيـةـ،ـ وـأـقـصـتـ بـقـيـةـ الـعـرـاقـيـوـنـ،ـ فـهـذـاـ سـيـكـونـ وـصـفـةـ لـخـرـابـ
وـدـمـارـ وـاـنـهـيـارـ لـعـقـودـ وـعـقـودـ.

لـاـ حـظـواـ كـيـفـ أـنـ عـرـاقـ لـمـ يـتـعـافـ رـغـمـ مـيـزـانـيـتـهـ الـهـائـلـةـ مـقـارـنـةـ بـمـيـزـانـيـةـ سـوـرـيـاـ الـهـزـيلـةـ.
لـمـاـذـ؟ـ لـأـنـهـ لـيـسـ هـنـاكـ قـيـادـةـ يـجـمـعـ عـلـيـهـ الـعـرـاقـيـوـنـ،ـ بـلـ هـنـاكـ قـيـادـةـ طـائـفـيـةـ تـابـعـةـ لـإـلـيـرانـ اـسـتـعـادـتـ عـلـيـهـ بـقـيـةـ الـشـعـبـ،ـ فـتـحـوـلـ
الـعـرـاقـ إـلـىـ سـاـحـةـ وـغـيـ وـتـنـاـحـرـ وـاقـتـالـ وـاـنـهـيـارـ.

ولو حصل ذلك في سوريا، لا سمح، الله، عندئذ يمكن أن يتوقع أن يصبح وضع سوريا أسوأ من وضع العراق بعشرات المرات لأسباب مذهبية وطائفية واقتصادية مرعية.

لكن، لا أعتقد أن السوريين سيسمحون بتكرار النموذج العراقي في بلدتهم لأسباب موضوعية، فالسوريون لن يقبلوا بحكم مذهبي على الطريقة العراقية، خاصة وأن الغالبية العظمى منهم على عداء مع المذهب الإيراني الذي تم فرضه في العراق بقوة الحديد والنار.

وبالتالي، فإن فرص إيران في تثبيت نظام شبيه بنظام الملكي في العراق الطائفي لن تنجح في سوريا، ناهيك عن أنه لم ينجح في العراق بدليل أن وضع العراق يتدهور يوماً بعد يوم منذ تحريره المزعوم عام 2003.

لا تقلعوا على سوريا، فلتهدأ الأوضاع، ولি�توافق السوريون على قيادة وطنية حقيقية، ولি�طهروا أرضهم من رجس الغرباء جمِيعاً، وسترون أن السوريين سيتصالحون مع بعضهم البعض بأسرع مما يتوقع الكثيرون، وستنهض سوريا من تحت الرماد كطائر الفينيق.

القدس العربي

المصادر: